

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

الحمد لله الكريم ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي كان أجود بالخير من الريح المرسلة ، وعلى آله وأصحابه الكرام الأطهار الأخيار .
وبعد ...

فإن البخل صفة ذميمة ، وهو عرض من أعراض النفس ، وغريزة من غرائزها ، حيث قال عز وجل ﴿ وَتَجِبُونَ أَلَمَالًا حُبًّا جَمًّا ﴾ [الفجر: ٢٠] مع أن البخل يذهب المال ويوجد الحسد والبغضاء بين الفقراء والأغنياء ، قال تعالى : ﴿ لَيْنَ سَكَرَتُمْ لِأَرْيَدُنْكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ .
[إبراهيم: ٧] .

وقضية الإيمان تدعونا إلى مجاهدة النفس بإخراجها من غريزة البخل إلى صفة الكريم ، فمن أسمائه تعالى الكريم ، قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يُوقِ شَعْنَهُ نَفْسُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر: ٩] .

والله عز وجل يكره البخل كما يكره الناس ، مع أن الله غني عن الناس أجمعين ، قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَخْشَى لِنَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ ﴾ [محمد: ٣٨] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا * الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ ﴾ .
[النساء: ٣٦ - ٣٧] .

وقد سجل القرآن الكريم لوحة مدح وثناء من رب الأرض والسماء للانصار الذين أكرموا إخوانهم المهاجرين فكانوا خير جار ، قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ بَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر: ٩] وقد كان رسول الله ﷺ أجود الناس ، يعطى ولا يخشى من ذي العرش إقلالا ، ويسخر بكل ما يملك ، حتى قال له رب العالمين : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا ﴾ .
[الإسراء: ٢٩] .

وحبينا رسول الله ﷺ في الانصاف بالكرم ، فقال : « إن الله جواد

يحب الجود ويحب مكارم الأخلاق ويكره سفسافها»^(١) ، وقال « ما من يوم يُصبح العباد إلا وملكاً ينزلان ، فيقول أحدهما : اللهم أعط منفقاً خلفاً ، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكاً تلفاً»^(٢) وقال : « اتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم»^(٣) .

وقد أفرد الجاحظ البخل بالتأليف في كتاب سماه « البخلاء » استطاع فيه أن يصورهم وليسوا بعيدين عنه ، بل من بيئته ومن خلطائه ؛ بل من خلصائه ممن سمع عنهم ، أو رويت له أخبارهم في البخل والمنع ، وهو بهذا قد سبق الجميع فوضع في هذا الكتاب أصول علم البخل وفلسفته .

وقد عشنا مع هذا الكتاب وأول اهتمامنا تصحيحه وضبطه ، ثم توضيحه وشرحه ، مع تخريج أحاديثه ، وتوثيق رواياته ، وعنوانه ، فإن نكن قد وفقنا فلله الحمد والشكر ، وإلا فلا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، عليه توكلت وإليه أنيب .

المحقق : محمد علي أبو العباس



(١) رواه الطبراني والبيهقي والحاكم قال العراقي إسناده صحيح .

(٢) رواه البخاري . (٣) رواه مسلم .

المؤلف والكتاب

مولده ونشأته :

هو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب ، لقب بالجاحظ لجحوظ عينيه . ولد سنة ١٥٩ هـ بالبصرة ، ولا نكاد نعرف عن أبيه إلا اسمه الذى يقرن باسم ابنه ، ولا نعرف عن أمه إلا أنها كانت تكفله ، وتنفق عليه وتتولى أمره ، ومن هذا يتبين لنا أنه فقد أباه صغيراً ، فتولت الأم رعايته وكفالته ، ونظرًا لما أحيطت به الأسرة من فقر فإن الجاحظ لم يعف من تحمل أعباء الحياة فبدأ يعمل ليكسب أسباب الحياة ، فكان يبيع الخبز والسّمك فى إحدى جهات البصرة .

وهكذا أحاطت الأقدار به منذ مولده بيتهم وفقير ، بجانب قبح أنكره المترفون الأثرياء ، ومع كل ذلك فقد مضى إلى الكتاب ليتلقى مبادئ القراءة والكتابة ، ويتعلم ما كانت الكتاتيب تقوم به لصبيان الطبقة الأولى ، ولقد أتيح له فى ذلك العهد - عهد الكتاب من المعلمين - من كان فى طبقة شحذت طبعه وألهبت تطلعه « كأبى الوزير » و « أبى عدنان » ، وهذان الرجلان فى سعة علمهما وقوة منطقتهما أثارا الرغبة فى الجاحظ إلى أن يلتمس العلم فى أماكنه ، بجانب الجو العلمى والاجتماعى فى البصرة والذى هباً لأفراد الطبقة الدنيا السمو بأنفسهم ، فمن هذه الطبقة خرج رجال العلم والأدب والدين والسياسة ، وقد أقبل « الجاحظ » بهيئته لمجد أدبى ، ورفعة اجتماعية ، وبهذا جمع بين الكسب للرزق ، وطلب العلم ، ومن هنا تكونت شخصيته ووجه الوجهة التى نراها فى أدبه ، وبلغ منزلة عظيمة فى شتى العلوم والفنون .

صفاته :

الجاحظ سريع البديهة ، كثير القراءة ، قوى الحفظ ، حلو الفكاهة ، له ذكاء خارق ، يسطع برهانه ، وله خيال رائع ، ووصف بارع ، وهذا يدل على عقل كبير ، وعلم غزير ، ومنطق سليم ، لا يتصنع ولا يتكلف ، وإنما يحقق ويتعمق ، وآثاره شاهدة ، ومؤلفاته لأمعة باقية .

قال « ابن خلدون » : « سمعنا من شيوخنا فى مجالس العلم أن أصول فن الأدب وأركانها أربعة دواوين ، وهى : أدب الكاتب لابن قتيبة ، وكتاب الكامل للمبرد ، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ ، وكتاب النوادر لأبى على القالى ، وما سوى هذه الأربعة فتبع لها وفروع عليها » .

وقال « أبو هفان » : « لم أر قط ولا سمعت من أحب الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ ، فإنه لم يقع بيده كتاب قط إلا استوفى قراءته » .

ولذا أقبل إليه طالبو العلم ، فأخذ يعلمهم ، وينظر العلماء ، وكثرت صلات الخلفاء والوزراء به مما جعل ذكره يطير ، واسمه يلعب ، وصيته ينتشر .

العوامل التي أثرت في تكوين شخصيته وعبقريته الفنية :

١- الحياة العاملة : البصرة لم تكن بالمدينة الصغيرة المحدودة ، ولم تكن الحياة فيها ساذجة ، بل كانت المدينة كبيرة واسعة زاخرة بأهلها الذين كانوا يتضاعفون ، وكانت الحياة فيها معقدة فوارة بثتى النزعات والنزوات ، فهي تجارية تستقبل أهل البادية مما جعل الأجناس المختلفة فيها ، ولكل جنس مزاجه وخلقه ، والاحتكاك فى أسواقها ، وبينما كان الجاحظ يلتبس رزقه اليومي كثر احتكاكه بتلك الأجناس فتكونت شخصيته الأدبية من طبائعهم وغرائزهم ونزواتهم ومنازعاتهم حيث أخذ موضوعات لكتبه .

٢- المربد : أحد أسواق البصرة ، أو هو سوق البادية فيها ، يأتي إليه أخلاط من الناس للتجارة ، أو التفرج من مشاغلهم ، أو التسوق فنشأت له تلك الصبغة الأدبية ، كما كانت فى عكاظ وذى المجاز ومجنة ، أسواق العرب فى الجاهلية ، وقد غلبت على هذا السوق الصبغة العربية البدوية ، وقد احتل مكانا فى الحياة الأدبية العلمية ، فكان لابد من التردد بين جنباته لتهديب السليقة اللغوية ، ثم لتؤخذ اللغة نابضة عن هؤلاء الأعراب ، والجاحظ جذبته هذه الأشياء إلى هذه البيئة منذ الأيام الأولى ، فكان لهذا أثر واضح فى عباراته وتذوقه وفهمه ، وقد بقى يقرب البدويين ويكرمهم بذكرهم فى كتبه لما لهم من أثر واضح فى تفتيح عقله ، وثقيف ذوقه الفنى .

٣- المسجد : منذ العهد الأول فى الإسلام ، والمسجد يعتبر مدرسة للعلم ، إلى جانب كونه داراً للعبادة ومركزاً للقضاء والشورى ، ففيه تتمثل الصورة العقلية والنزعات النفسية والتيارات الاجتماعية لما حوله ، وهكذا كان مسجد البصرة الجامع ترددت فى جنباته مجالس وحلقات تزيد وتتسع ، وأخذت مجالس الكلام تضع يدها على شتى المسائل ، واتصل الشعراء بالمتكلمين ، وأتاحت هذه المجالس لمسجد البصرة ذلك الجو العلمى الواسع ، وتلك الحياة الواسعة القوية ، وبجانب ذلك كانت مساجد الأحياء وأفنية الدور المتعددة تتسع لذلك النشاط العلمى الرائع الذى لم يمكن لمسجد البصرة أن يتسع له كله ، والبصرة كثيرة المساجد بجانب أفنية الدور التى اتخذت أماكن للعلم وحلقات للدرس .

٤- الأندية الأدبية : هى مجالس خاصة تنعقد فى دور الأمراء والأشراف والأغنياء ، وتمتاز بأنها كانت تدور فيها الأحاديث المختلفة وتنتشر وتشيع بين الناس ، يغشاها من يتصلون بجمهور المتأدبين ، وقد كثر عددها وتعددت ألوانها ، وأصبحت عاملاً كبير الخطر فى تكيف الجو الأدبى بالبصرة .

٥- روح الشعب : توثقت الصلة فى البصرة بين الحياة العقلية والحياة العامة ، فمواطن الثقافة عامة متاحة لجميع البصريين لا فرق فى ذلك بينهم ، بل الطبقات الدنيا أوفر حظاً وأكثر إقبالا عليها ، ولقد حكى الجاحظ عن البحريين والقطارين من أصحاب الكلام .

وهذه الروح القوية في الشعب البصري أخذت ترتفع به إلى أمكنة السادة فأصبح منهم الكتاب والولاء والوزراء ، ثم هذه الروح دفعت إلى مواطن الثقافة وزاد الطموح ، وظهر طابع الروح الشعبية في إمدادها للأدب بعوامل النشاط والقوة والحيوية .

٦- دكاكين الوراقين : الجاحظ من أكثر أهل عصره قراءة وحبا للكتب ، والتماسا للمعرفة ، فلم يقع بيده كتاب إلا استوفى قراءته حتى إنه كان يكتري دكاكين الوراقين فيبيت فيها للنظر في الكتب ، ولذا فإننا نعتبر بيئة الكتب من أعظم العوامل في تكوينه .

اتجاهه إلى التأليف :

اتجه الجاحظ إلى كتابة الرسائل وتأليف الكتب ، وبذلك الرسائل تنفست نفسه الفنية ، وبدأ الوراقون ينشرونها في المدن والأمصار ، ووصلت شخصيته إلى المجد الأدبي الواسع العريض حيث وصلت إلى ما وراء حدود البصرة .

وبالتأليف خطا بتلك الصناعة خطوة جديدة ، وبالعقل الفذ سلك مسلكا جديرا به بعيدا عما كان موجودا من الجفاء والغموض والافتضاب فلا رونق له ولا ماء فيه ، بل عالج هذا النقص الذي كان موجودا بأن جعل الكتاب شيئا مستقلا ، فجاء كتابه يجمع بين بسط العبارة وجمالها ، يقدم لجمهرة القراء جميعهم ، ولذا قال المأمون حين نظر في كتابه عن الإمامة : « وهذا كتاب لا يحتاج إلى حضور صاحبه ، ولا يفترق إلى المحتجين عنه فقد جمع استقصاء المعاني ، واستيفاء جميع الحقوق مع اللفظ الجزل ، والمخرج السهل ، فهو سوقى ملوكى ، وعامى خاصى » . وبهذا دخل الكتاب العربى طوراً جديدا على يد الجاحظ .

كتبه :

كتب الجاحظ ما يقرب من خمسين ومائة من الكتب في مختلف المعارف ، ومن أشهرها كتاب البيان والتبيين الذى قدمه إلى القاضى أحمد بن أبى دؤاد ، وكتاب الحيوان الذى كتبه للوزير محمد بن عبد الملك الزيات فأجازه عليه ، وهو كتاب علم وأدب ، ومن أنفس كتبه « البخلاء » الذى نعيش معه نحاول إضافة تفيد القراء ، ومن كتبه : القحطانية والعدنانية ، والموالى والعرب ، والصرحاء والهجناء ، وفخر السودان ، وطبقات المغنين ، وفضل هاشم على عبد شمس ، ومناقب الترك ، والشعوبية والفتيا ، وحجج النبوة ، ونظم القرآن ، وآى القرآن ، ومسائل القرآن ، وخلق القرآن ، والرد على المشبهة ، والرد على النصارى ، والرد على اليهود ، وفصل ما بين العداوة والحسد ، وكتاب البلدان ، والنساء ، ومن رسائله : الجدل والهزل ، والتربيع والتدوير ، ومدح التجارة ، وذم عمل السلطان ، ورسالة القيان ، وغير ذلك مما خلفه من كنز ثمين ، يعتبر تراثا رائعا فى سجل الأدباء والمتأدبين .

وفاته :

بعد هذه الحياة الحافلة بهذا التراث العظيم اشتدت العلة بالجاحظ ، ولزم الفراش حين أقعده مرض الفالج والنقرس^(١) . حدث المبرد قال : دخلت على الجاحظ فى آخر أيامه فقلت له : كيف أنت ؟ فقال : كيف يكون من نصفه مفلوج لو حَزَّ بالمناشير ما شعر به ، ونصفه الآخر منقرس ، لو طار الذباب بقربه لآلمه ، وأشد من ذلك ست وتسعون سنة أنا فيها ، ثم أنشدنا :

أترجو أن تكون وأنت شيخ كما قد كنت أيام الشباب
لقد كذبتك نفسك ليس ثوب دريس كالجديد من الثياب

وبجانب ذلك أعباء الحياة التى ألجأته إلى الاستدانة ، وتوفى سنة ٥٥٢ هـ كما جاء فى تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ، وتاريخ الشام لابن عساكر ، وياقوت الرومى فى معجمه . وهكذا انتهت حياة الجاحظ ، ولكن شخصيته العظيمة قائمة مظهر قوة ، ومبعث فخر فى بيئات الأدباء والمتأدبين منذ موته وحتى الآن .

بنية الكتاب :

تنقسم نصوص كتاب البخلاء إلى فصليتين اثنتين ، تشتمل الأولى على مجموعة من الرسائل تشكل ما يزيد على نصف الكتاب ، وهى رسائل ، ووصايا ، وردود مطولة ، بدأت برسالة « سهل بن هارون » ثم مرت بالكندى والثورى وغيرهم وانتهت بابن التوأم ، وتمتاز بالطول والإطناب ، وكثرة الأساليب الإنشائية ، والمقابلات ، ومحاولة التأثير فى المستقبل بشتى الوسائل . ففى رسالة « سهل بن هارون » نرى الهدف هو الدفاع عن عيش البخلاء ، وفى حديث خالد بن زيد نراه يوصى ابنه ويحثه على حفظ المال ، وفى قصة الحزامى نجدها مثالا فى التدقيق وإدراك الفويرقات ، وفى قصة الحارثى نلمس الهدف وهو حملة شديدة على الأكل والأكلة ، وفى قصة الكندى توضيح لأضرار وعيوب المستأجر على صاحب الدار ، وفى قصة ابن أبى المؤمل نرى البخيل يعلل قلة عدد خبزه ، ويكشف عن نفسه ، وفى قصة الثورى يظهر الإمساك الشديد والدعوة إليه ، وفى قصة أبى سعيد المدائنى نلمس الغرض ، وهو العلل والحوادث إلى الأكل ، وفى قصة أبى سعيد المدائنى نلمس الغرض ، وهو الموازنة بين الأشياء لمعرفة أقلها نفقة ، وفى قصة أبى عبيد نرى الشيخوخة والحرص على المال ، وفى رسالة أبى العاص بن عبد الوهاب الثقفى يذم البخل والبخلاء ، وفى رد ابن التوأم دفاع عن البخلاء ومذهبهم فى الاقتصاد .

(١) الفالج : الشلل النصفي فى شقه الأيسر ، والنقرس فى شقه الأيمن .

الفصيلة الأخرى :

تشكل هذه الفصيلة ما يقارب نصف الكتاب ، وهى عبارة عن عدد كبير من القصص القصيرة والنوادر البسيطة عن حياة البخيل وعيشه ، وهناك قصص مستقلة كقصة ليلى الناعطية ، والأصمعى ، وتتوفر فيها الأساليب الخيرية مع بساطة الجمل محاولا نقل المشاهد والأحاسيس ، وتضم طرف أهل خراسان لتبين المجتمع المروزي فى بخله ، وقصص المسجدين ، والهدف بيان أن البخل مذهب أخلاقى وفكرى ، وقصة زبيد بن حمير الصيرفى تبين الحرص حتى على أبسط الأشياء ، وقصة وليد القرشى وابن مازن تبين لؤم الضيافة ، وقصة أحمد بن خلف تحسن الفوارق فى القيم ، ثم هناك قصص وطرائف أخرى ضاحكة فى أماكن شتى .

أما القصص التى وردت منفردة فهى قصة ليلى الناعطية وتهدف إلى الاقتصاد فى الثياب وقصة أبى جعفر وتهدف إلى الاقتصاد فى الطيب ، وقصة خالد بن عبد الله القسرى وتهدف إلى ذم الأكل ، وقصة أسد بن جانى وتهدف إلى الاقتصاد فى تبريد البيت فى فصل الصيف ، وقصة العقدى والغرض منها لؤم الضيافة ، وقصة الأصمعى تبين انعدام روح التعاون . وبهذا العرض تعرفنا على طبيعة نصوص الكتاب فرأيناها فى قصص واحتجاجات ، وعرفنا مميزات كل منها ودورها فى الكتاب .

أسلوبه :

لأسلوبه رنين ، وطعم فريد فاق ما تذوقه من كتابات القدماء المحدثين ؛ من العناية فى اختيار لفظ رشيق ، وتنسيق حلو ، وتصوير بارع فيه عذوبة وسلاسة ، وبلاغة ، ومعان كبيرة وحكم بالغة وبراعة فى الوصف ، وحجة تراها فى جدل ساحر ، وصياغة تبين البخلاء أحياء يتكلمون مع أن الأيام قد طوتهم فتسمعهم يعيرون الكرم بهذا الأسلوب الجميل .

ومع أن الجاحظ يسوق القصة أو النادرة أو الرواية بقوله « حدثنا أو أخبرنا » إلا أن القول له ، والأسلوب ليس لأحد سواء فيما رواه أو حكاه ، اللهم إلا القول المأثور أو الأثر المشهور ، أو الحديث النبوى ، أو الآية القرآنية .

ومع كل ذلك فهناك التواء فى تراكيب بعض العبارات وسقم فى تعبيرها اعترف به الجاحظ حين تركها لإرضاء أذواق البعض فى عصره .

طباعات الكتاب :

فعلى الرغم من تعدد طباعات هذا الكتاب ، والتى بدأت بطبعة المستشرق « فان فلويتين » سنة ١٩٠٠ ، ليدن ، ثم طبعة الأستاذين : أحمد العوامرى ، وعلى الجارم سنة ١٩٣٨ ، ثم طبعة الأستاذ / طه الحاجرى إلى غير ذلك من الطباعات ، فإن نقصا شاب هذه الطباعات تمثل فى عدم تخريج الأحاديث النبوية ، وإهمال تحقيق الروايات

بإرجاعها إلى مصادرها إلى جانب التقصير الواضح فى توثيق الشعر من خلال الدواوين والمعاجم ومصادر الأدب المختلفة ، ولقد حاولت تلافى هذا القصور فى هذه الطبعة معتمدا على نص طبعة العوامرى والجارم .

منهج العمل فى الكتاب :

- ١- تخريج الآيات من سورها بالمصحف الشريف .
- ٢- تخريج الأحاديث من كتب السنة .
- ٣- ضبط النص وتصحيحه .
- ٤- تعريف ببعض الأعلام .
- ٥- شرح الكلمات الصعبة بالرجوع إلى المعاجم .
- ٦- وضع عناوين تساعد القارئ على الفهم .
- ٧- توثيق بعض الروايات .
- ٨- توثيق الشعر من الدواوين والمعاجم .
- ٩- التعريف بالمؤلف والكتاب .

هذا والله أسأل أن يهدينا سواء السبيل ، وأن يلهمنا الرشد والصواب إنه نعم المولى ونعم النصير .

جمادى الآخرة سنة ١٤١٧

نوفمبر سنة ١٩٩٦

الفقير إلى الله أبو شيماء وتسليم
محمد على أبو العباس

